

البعد الأخلاقي ودوره في توجيه العلاقات الاجتماعية المصرية القديمة

د. سميرة شهبي *

المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة الجزائر

soumia.chahbi@yahoo.com

تاريخ القبول: 2023/03/13

تاريخ الارسال : 2023/02/04

ملخص:

نهدف من خلال مقالنا إلى تسليط الضوء على القيم الأخلاقية والمثل العليا التي تميزت بها الحضارة المصرية القديمة، ونحاول إبراز دور كل من الوازع الديني وسلطة المجتمع والفترة الإنسانية، في ترسيخ قواعد السلوك وتشكيل منظومة فكرية أخلاقية، تنامت وتطورت نتيجة التطور التاريخي وبفعل تراكم تجارب المفكرين والحكماء.

وتوصلنا في الأخير إلى أن المؤسسة الفكرية "الحكماء" والمؤسسة الكهنوتية والتعليمية أطرت وهيكلت المجتمع (العلاقات الاجتماعية) وأطرت الأفراد (الحياة الفردية) بغرس قيم أخلاقية، عن طريق التعاليم والنصائح والأساطير الدينية، لكسب محبة الآلهة ورضاها. والبحث عن الاستقرار والسعادة والسلام الداخلي والترابط والرفق الاجتماعي. في حين رأى المصري القديم أن الجشع أخطر أنواع الرذيلة تدمر العلاقات الأسرية والاجتماعية وتؤدي بالفرد للهلاك.

الكلمات المفتاحية: الأخلاق، تعاليم الحكماء، الأسرة، المجتمع، مصر القديمة.

* المؤلف المرسل: د. سميرة شهبي، الايميل: soumia.chahbi@yahoo.com

مقدمة:

لخص المصري القديم حياته في شكل سير ذاتية منقوشة على واجهة القبور، قام بتضمينها القيم الأخلاقية الفاضلة التي تحلى بها، كحسن التعامل مع الناس والسعي للخير، وتجاهل كل السلوكيات الخاطئة، بمعنى أنه كان يميز جيدا بين الممدوح والمذموم.

فكيف توصل إلى فكرة أن الانسان الفاضل والخير ينال السعادة الدنيوية والآخروية، في حين أن الشر يؤدي إلى طريق لا تُحمد عقباه؟ وهل تأثرت العلاقات الاجتماعية بالقيم الأخلاقية؟

أولا: تعريف الأخلاق:

الأخلاق جمع خُلُق ومعناه في اللغة العربية العادة، ويقابل هذه الكلمة في اللغات الأجنبية morale بالفرنسية و morals بالإنجليزية، وهذه الكلمات مشتقة من الكلمة اللاتينية mores جمع mos وينظرها في اليونانية ethos ومعناه العادة. ويمكن تعريف علم الأخلاق بأنه جملة القواعد التي تسيّر عليها إرادة الإنسان للوصول للمثل العليا، أو هو علم القواعد التي إذا التزم بها الفرد كان تام الخلق، فالأخلاق بالمعنى الفلسفي هي علم معياري، إنها لا تبحث بما هو كائن، بل بما يجب أن يكون. (مرحبا، 1988، صفحة 32) ويبدو أن معظم مقاصد الإنسان الأخلاقية غرضها بشكل عام بلوغ الخير، والخير هو الغاية نفسها التي تُبتغى (ارسطو، 1924، صفحة 168)، ويرى "أرسطو" أن الشرير قد يصبح خيرا عن طريق التأديب، ولكن ليس دائما. فبحسبه أن تكرار المواعظ والتأديب، والمعاملة بالحسنى لا بد أن يؤثر في الناس، فمنهم من يصبح فاضلا بسرعة، ومنهم من يتحرك إلى الفضيلة ببطء (ارسطو، 1924، صفحة 182).

وعلم الأخلاق عند "مسكويه" أفضل العلوم لأنه يهتم بأفعال الإنسان، وأشار إلى ضرورة تقويم الخلق على أساس فلسفي سليم حتى تصدر الأفعال عن نفس جميلة من غير كلفة ولا مشقة (برادي، 2015، صفحة 104). لذا دعا الوالدين إلى إعداد نفوس أولادهم لقبول الحكمة والتحلي بالأداب الجميلة والأخلاق السامية، والبلوغ إلى السعادة بالفكر الصحيح، عن طريق الموعدة والتلقين والترغيب، وفي حالة النفور اللجوء إلى التوبيخ والتحذير من العقوبات إلى غير ذلك، فمن يتأمل من أخلاق الأطفال يرى فيهم تباين الصفات الأخلاقية من الكرم والبخل والرحمة والقسوة والغيرة وغيرها، فيتضح أنهم ليسوا على رتبة واحدة، وأن فيهم السهل السلس والفظ العسر، والخير والشرير والمتوسط بين هذه الأطراف، وإذا أهمل

الطفل ولم يُقَوِّم ولم يُؤَدِّب، نشأ على سوء طباعه، وبقي العمر كله على الحال التي كان عليها في الطفولة (مسكويه، 2011، صفحة 269).

والقيم الأخلاقية هي المعايير التي تضبط المجتمع وتساعد على أن يكون التفاعل بين الأفراد ناجحاً للوصول للاستقرار والسلام الداخلي. وبالنسبة لمصر القديمة، يذكر "جيمس هنري برستد James Henry Breasted" (عالم آثار ومصريات ومؤرخ أمريكي): «بني المصريون القدماء بنشاطهم الجَم صرحاً من المدنية المادية يظهر أن الزمن يعجز عن محوه محو تاماً، وأما الأخلاق فهي اتجاه جوهر الحياة المنوع، الذي لا يدرك باللمس واللون، من العادات والتقاليد والصفات الشخصية المشكَّلة بتأثير القوى الاجتماعية والاقتصادية والحكومية التي تعمل باستمرار في مناهج الحياة اليومية» (برستد، 1999، صفحة 130)

أول وأهم المصادر التي يمكن أن نتلمس من خلالها الجانب الأخلاقي في مصر القديمة هي: النقوش في مباني القبور ومتون الأهرام، والمسرحية المنفية التي تؤلف أقدم دور في تطور الإنسان الخلفي، وهو الدور الذي كَوَّن أعظم الخطوات الأساسية في تطور الحضارة المصرية القديمة (برستد، 1999، الصفحات 129-130)، يُضاف إلى تلك المصادر تلك الحكم والوصايا التي تركها أصحابها، وقد أطلق عليها بعض الباحثين أنها حكم ووصايا من أجل الإرشاد إلى الحياة directives for life أو ببساطة قد يطلق عليها اسم التعاليم Teachings، ومنها على سبيل المثال تعاليم (بتاح حوتب Ptah-hotep) وتعاليم (خيتي Khety) والتعاليم الموجهة إلى (مريكارع Merikare) و(آني Ani) و(أمنموبي Amenemope) وسبق تلك النصوص، نصوص أخرى قديمة مثل النصوص المنسوبة إلى "أحمتب Imhotep" رجل الدولة والمعماري للملك "زوسر Zoser"، ولكن تلك النصوص فقد معظمها (زهران، 2012، صفحة 35).

والحقيقة التي يجب الإشارة إليها هي عدم وجود النصوص الخاصة بالحكم والوصايا كاملة، فالجمل في بعض المواضع ناقصة ومشوهة، مما أثر على الترجمات.

ومن خلال قراءة النصوص والتعاليم السابقة الذكر، يمكن ملاحظة تأكيد الفكر الأخلاقي على ممارسة الفضيلة من أجل بناء الوجود الإنساني الحق، ليحيا الإنسان حياة طيبة سعيدة. وحاول المصري القديم التعبير عن فضيلة حب الخير بالسلوك الحسن والخلق الطيب، وتعويد الإرادة على الأعمال الطيبة حتى تصبح فضيلة (زهران، 2012، صفحة 191).

ثانياً: أسس القيم الأخلاقية:

إذا ما تحدثنا عن الأخلاق عند قدماء المصريين لوجدناها تتمثل في المثل العليا والمبادئ السامية كالسلوك الحسن والسعي للخير، هل نشأت هذه القيم من الغريزة والعقل والضمير، أم من عقيدة الدين، أم من سلطة المجتمع؟

1 الأساس الديني الميتافيزيقي:

آمن المصري القديم بأن الإنسان غير كامل، والقدرة الإلهية تتولى عنه تسيير الكون، وتخيل وجود أرباب متفرقين يتكفلون بأمور السماء والأرض والماء والهواء والشمس... الخ. ارتبطت القيم الأخلاقية بالآلهة فعلى سبيل المثال إله الشمس يوفر الضوء والحرارة اللازمة للحياة الاجتماعية والنباتية، وإله السماء يوفر المياه العذبة وإله الأرض يعدّ التربة الصالحة للإنبات الجيد... وهذا كله للناس جميعاً دون استثناء، فمنها نشأت فضيلة العدل والرحمة والحق (سعد الله، 2002، صفحة 17) ومنذ الإله "بتاح" والمصري القديم اعتقد أنه الكائن الذي تتمثل فيه القواعد الأخلاقية، فما يوضحه النص المنفي أن هذا الإله هو من قرّر الخير، وحدّد الشر، وبناءً على هذا التحديد تقرر مصائر البشر «..الذي يفعل ما هو محبوب، والذي يفعل ما هو مكروه فإن الحياة تعطي للمسلم والموت يحقّق بالمجرم» (برستد، 1999، صفحة 54).

وكذا الإله "رع"، تصوره المصري القديم إلهاً للخير والعطاء، خلق الإنسان ليرى نور الخير والجمال، لأن إله الشمس هو الحياة، ولا حياة إلا به. وقد أفضى بخيراته على البشر، ويرعى شئونهم، رحيم في معاملتهم حتى في أوقات غضبه. كما تظهره الأسطورة حين أراد هلاك البشرية (زهران، 2012، صفحة 71) (مظهر، 2000، صفحة 14)، إلا أن رحمته بهم جعلته يتراجع عن قراره. كما أنه كان قاض يحكم في شؤون البشر، فهو يحكم عالماً يرى من واجبه توجيه حياة البشر فيه طبقاً لقواعد تفصل بين الحق والباطل (برستد، 1999، صفحة 52).

وهذه الصورة للقيم الأخلاقية لإله الشمس انعكست على أخلاق الفرد، فالواجبات الأخلاقية نادت بتطبيق الخير والرحمة والعدل.

كذلك الإله "أوزيريس" ارتبط أساسا بالفضيلة، خاصة بعد صراعه مع أخيه "ست" ذلك الصراع الذي اكتسب معنى خُلِقيا (صراع الخير ضد الشر)، فكان له تأثيره في الوعي الأخلاقي (زهران، 2012، صفحة 72).

وتمّ الاعتقاد أن الآلهة عينت "أوزيريس" قاضيا في المحكمة الإلهية، فظهر فكرة المحاكمة في "الحياة الثانية" أخذت تتحدد بوضوح امتد إلى ما بعد عام 3000 ق م. ففي البداية لم تفترض حضور جميع الناس أمام المحاكمة، إنما شابهت محكمة الدنيوية التي يقف أمامها المذنبون. فكان في أول الأمر لزاما على الشخص المتهم فقط أن يحضر أمام المحكمة في "الحياة الثانية بعد الموت" ليظهر براءة نفسه. ثم تحول الأمر لمحاكمة جميع الناس في بداية العهد الإقطاعي قبل عام ألفين قبل الميلاد، وفي أوائل عهد الدولة الحديثة (حوالي 1600 ق م) أصبحت المحاكمة لا تقتصر على حصر تفصيلي لكل المخالفات الخلقية، وإنما صارت امتحانا خلقيا قاسيا، بل معيارا شاملا للقيمة الخلقية لحياة كل إنسان (برستد، 1999، صفحة 40).

وتتمثل أسئلة القضاة في محكمة العالم الأوزيري فيما يلي:

1. هل عشت أجلك كاملا كما حدده الإله؟
2. هل راعيت حق بدنك عليك، كما رعاك في شبابك؟
3. هل حفظت جسدك طاهرا كرداء نظيف لم تلوثه الآثام؟
4. هل تغلبت على شهوات جسدك؟
5. هل حافظت على حسن سيرتك؟
6. هل امتدت يدك إلى سرقة ما ليس لك؟
7. هل قتلت نفسا بغير حق؟
8. هل تغلب عليك الغضب فكننت أسيرا له. وهل السوط في يدك كالسوط في يد الفرعون؟
9. هل أنت بريء من الاطلاع على جسد أمك أو أختك أو ابنتك أو خالتك؟
10. هل آذيت حيوانا أو عذبت به بغير سبب؟
11. هل سكرت حتى فقدت عقلك وأصبحت إرادتك أسيرة الأهواء؟
12. هل نظرت إلى من هو أغنى منك أو أمهر منك بعين الحسد أو الحقد؟

13. هل سبق أن مزقت الغيرة قلبك بمخالبها؟
14. هل تحدثت بسوء عمن ذكرك بخير؟
15. هل أهملت محرائك وأرضك وقت الزرع أو البذر؟
16. هل شعرت برغبة جامحة في معرفة أمور وجب ألا تسمعها أذنك أو تراها عيناك؟
17. هل رأيت خيالك وقد بدا كبيرا على الجدار فأخذك الغرور وظننت نفسك كبيرا وقويا مثل خيالك؟
18. هل تعلقت بالدنيا وربطت نفسك بها بسلاسل من ذهب؟
19. هل شغلت عيناك بأمور الدنيا حتى عميت عن أمور الحياة الثانية؟
20. هل تعاملت في الأسواق بالعدل والأمانة؟
21. هل تجنبت طريق الصواب عندما وجدته مخفوفاً بالمخاطر؟
22. هل اعترفت بالجميل لكل من كان صديقاً لك في رحلة الحياة سواء أكان إنساناً أم حيواناً حملك أو شجرة رمان أنعشتك؟
23. هل تصدقت بخبزك على المحتاجين وبثمار حقلك على المنهكين؟
24. هل صنت لسانك عن شهادة الزور وقول البهتان؟
25. هل أخذك الغرور بذكائك فعميت عليك حكمتك؟
26. هل ربطت سلاسل الكراهية بإنسان؟
27. هل سددت أذنيك عن سمع قول النصيحة وصوت الحكمة؟
28. هل عرفت السحر الأسود؟ وهل دنست نفسك بأن سمحت لجسدك أن يكون بيتاً لروح غير روحك؟
29. هل رويت بحكمتك عطش المتعطشين إلى الصدق؟
30. هل جلبت الرضا لقلب أمك والشرف لبيت أبيك؟
31. هل تذكرت الإله في طريق رحلتك وسألته طريق الهداية والرشد؟
32. هل بجلت خدام المعبد من الكهنة الصادقين وعملت بتعاليم الإله التي يحافظون عليها لينشروها بين الناس؟
33. هل استخدمت قوتك في سبيل الخير فقط والوقوف إلى جانب الحق والعدل؟

34. هل خنت جارك أو صديقك الذي ائتمنتك على عرض بيته؟
 35. هل كنت سيفاً مسلولاً في جيش الإله حورس؟
 36. هل تسببت في قيد حرية أحد أو سلبها منه؟
 37. هل صورتك التي انعكست في قلبك صورة مشرقة؟
 38. هل صادقت قلبك واستمعت لصوت ضميرك فكانا حسيب صدق على أعمالك؟
 39. هل تبينت أن نهاية كل مرحلة من مراحل حياتك هي بداية لمرحلة أخرى؟
 40. هل اهتممت بالنباتات فرعيتها وسقيتها وأطفأت ظمأها وتعهدتها حتى نبتت ونمت؟
 41. هل عاملت دوابك بالشفقة والرحمة؟
 42. هل يمكنك أن تقر في صدق أنه لم يسبق لي أن أجبرت رجلاً أو دابة على العمل أكثر من طاقته، وأدركت أن ما في الأرض مخلوقات إخوة لي في رحلتي، وأني مددت لهم يد المساعدة في رحلتهم؟ (كريم، 1996، الصفحات 57-59)
- يتضح أن عقيدة البعث والخلود، وعقيدة الحساب في الحياة الثانية بعد الموت، أدت إلى ظهور قيم الثواب والعقاب وإلى ضرورة التمسك بالعمل الصالح في الحياة الأولى. حيث أن الإنسان مطالب ببيان عمله، بمعنى أن الميت يسعد فيها أو يشقى تبعاً لما كان يفعل في الدنيا من خير أو شر (سعد الله، 2002، صفحة 26). حيث أن القيم الأخلاقية كان لها تقديرها في نظر الآلهة (برستد، 1999، صفحة 139). ويحدثنا "هيرودوت" عن المصريين أنهم كانوا شديدي التقوى أكثر من سائر الشعوب (Hérodote, 1964, p. 37)

2 الأساس الإنساني الفطري:

أشارت النصوص المصرية القديمة لسلطة العقل والضمير ودافع المنفعة كمصادر للإلزام الخلقي العقل: استعمل المصري القديم كلمة قلب لتدل على العقل أو الفهم، وذلك أنه اعتاد استعمال المعنويات، والكلمة التي تُلفظ أداة العقل فتعلن الفكرة. (برستد، 1999، صفحة 55) وينصح الحكيم "بتاح حوتب" ابنه قائلاً: «إن من يحسن الإنصات هو الذي يفوز بحب الإله، ومن أبي أن ينصت بآء بغضب من الإله، وإن قلب المرء (وهو عقله) ...» (كمال، 1998، صفحة 48). وترى الباحثة شاهيناز زهران

أن المصري القديم أكد على العقل ودوره في دفع سلوك المرء إلى فعل الخير أو الشر: «كنت رجلا جاهلا فاقد العقل، كنت لا أميز الصواب من الخطأ»، فهذا الربط بين فقدان العقل وعدم التمييز واضح منذ الدولة القديمة (زهران، 2012، صفحة 128).

الضمير: يشعر الإنسان في قرارة نفسه بقوة تحذره من فعل الشر، وتحاول أن تمنعه عن فعله، فإذا هو أصبر على ذلك أحسن بعدم الارتياح، وبعدها يشعر بالندم. كذلك يحس أن هذه القوة تأمره بفعل الخير، وتشجعه على الاستمرار، وهذه القوة الأمرة الناهية هي الضمير (زهران، 2012، صفحة 128)، لكن كيف فهم المصري القديم الضمير؟

وصلت العلاقات الاجتماعية والحياة الأسرية في مصر القديمة إلى درجة سامية من الرقي، عبرت عن السلوك الحميد والسلوك الخاطئ. وبذلك بدأت المشاعر الباطنية "الضمير" تسمع صوتها للفرد. (برستد، 1999، صفحة 38) فكان الابن يشعر بالاطمئنان والرضا حينما يبر والديه، ويوصف بأنه محبوب من والده ممدوح من والدته. وفي مقابل هذا الارتياح، نجد شقاء يضيق به الصدر وتنقبض له النفس إذا أقدم المرء على إتيان الشر. فهذا الشعور الذي شعر به المصري القديم لم يكن مجرد الشعور بالخير والشر، بل كان يحس بالراحة النفسية والطمأنينة والرضا. أو عكس ذلك (برستد، 1999، صفحة 131).

دافع المنفعة: وتأمل النصوص المصرية القديمة نجد ما يكشف عن دافع المنفعة الدنيوية الاجتماعية كمصدر للإلزام الخلقي كالشعور بلذة الفخر نتيجة تداول اسمه وإعجاب الناس، «أعط الخبز للجائع، وبذلك تبقى سيرتك طيبة تبقى إلى الأبد» (زهران، 2012، صفحة 132) ومن حكم "بتاح حوتب" لابنه: «إذا كنت بين جماعة من الناس، فاجعل حب الناس هدفك، ومبتغى قلبك. فيقول من يراك: " هذا هو رجل صالح فأقلده"، فيحسن ذكرك. ويعلو قدرك بين جيرانك. أما من يسير على هواه فلا يكون نصيبه إلا الاحتقار وهوان الشأن... فيصبح قلبه مليئا بالبؤس، وجسمه بغیضا... إن من اتبع هواه ضل» (كمال، 1998، صفحة 37)

ولا يتوقف دافع المنفعة عند المنافع الدنيوية فحسب، بل امتد إلى المنافع الأخروية التي تتمثل في استمرار سيرة المرء بذكرى طيبة وسط الآخرين بعد الوفاة، فيعيش سعيدا في آخرته. حيث يؤكد الحكماء مرارا أن أعظم فضيلة يتحلى بها الإنسان في الحياة هي العدالة وفعل الخير، فإنهما يبقيان بعد موته وتبقى ذكراه خالده وتتحقق سعادته الأخروية (برستد، 1999، صفحة 150). يتضح ذلك من خلال القول «لقد

فعلت ما كان يحبه الناس، ويُرضي الآلهة، حتى يجعلوا بيت أبديتي (قبره) يبقى واسمي موضع الحمد على ألسنة الناس» (بسيوني، 1997، صفحة 63)

3 الأساس الاجتماعي:

حسب Green أن الإنسان لا يمكن أن يُكوّن لنفسه ضميراً، وإنما يحتاج دائماً للجماعة تكوّنه له، والتي تضبطه في أفكار أخلاقية ودينية، لإقامة قواعد سلوكية مقبولة تنظم العلاقات الاجتماعية (Green, 1906, p. 387)، وبالتالي المجتمع والنظام الأخلاقي وجهان لعملة واحدة، حيث أن المجتمع هو "نظام أخلاقي" يرتبط بالمصلحة الفردية والعامة، لكنه مهدد بالانهيار بسبب الصراعات المتعارضة بين المصلحة الشخصية ومصلحة المجموعة العامة، لذا تعتبر القيم الأخلاقية منظمة للعلاقات الاجتماعية لتقليص التصادمات بين الفرد والجماعة (بينز، 2012، صفحة 172). ويبدو أن مرحلة الجماعة المنسقة والحكومة المنظمة - بعد مرحلة عصر الانتقال والترحال - كان لهما أثر كبير على عقول المفكرين القدامى، إذ كان الاعتقاد بأن المركز السامي والمرتب السامية والوظائف الحكومية التي يسير بمقتضاها المجتمع الإنساني هي من وضع عقل سام. وفي هذه المرحلة من التقدم البشري أخذ الإنسان يميز بين الخير والشر، وأن كل إنسان يتحمل عواقب أفعاله.

وما يلفت الانتباه أن الحكماء القدامى لم يستعملوا الكلمتين "طيب" و"خيث". فالمسلم في نظرهم يفعل ما هو محبوب والمجرم يفعل ما هو مكروه. وهاتان العبارتان هما حكمان اجتماعيان. وهما أقدم دليل عُرف على مقدرة الإنسان على التمييز بين الخلق الحسن والخلق السيء. فالرجل الفاضل يسمى "محباً للسلام" أو "حامل السلام" وهو تعبير أخلاقي بلا شك يعرف الرجل الفاضل بعلاقاته بمن حوله. وعلى النقيض منه "حامل الجريمة" أو "المجرم" فهو الذي يخطئ في حق من حوله. والواقع أنه في ذلك الوقت كان لا بدّ من وجود قانون مسنون يعترف بهاذين النوعين من السلوك ويقرر إحاقه الموت بالمسيء، ومنح الحياة لغير المسيء (برستد، 1999، صفحة 151). وظل استعمال هاتين العبارتين مستمرا قروناً عديدة، ولم يحل محلّهما كلمتا "الحق" و"الباطل" إلا بعد ذلك بزمان طويل.

وكان لقوة الحياة الاجتماعية أثرها في إلزام المرء، حيث كان استحسان الآخرين يوجه المرء نحو السلوك الفاضل، وكذلك استهجان الآخرين وسخط المجتمع يؤدي إلى تجنب الرذيلة (زهرا، 2012، صفحة 131). وذلك واضح من خلال نصيحة "بتاح حوتب" حكيم الدولة القديمة: «أما الغبي الذي لا يسمع

لوالديه نصحا فلن يلقي نجاحا.... يجلب على نفسه اللوم في كل يوم لأنه يفعل كل ما هو مكروه من الناس، وسيتجنبه الناس بسبب المساوئ الكثيرة التي يرتكبها» (بسيوني، 1997، صفحة 66)

كما كشفت النصوص المصرية القديمة عن قيم أخلاقية مصدرها سلطة المجتمع، حيث اهتم المصري القديم بقيمته وسمعته واحترامه بين الآخرين، ف"بتاح حوتب" يحث ابنه على فعل الطاعة من منطلق التقدير الاجتماعي: «ما أعظم سعادة الإنسان الذي يقول له الناس إنه ابن فاضل»

كذلك تصدر القيم الأخلاقية داخل حياة الجماعة، وتخضع لقيود المجتمع الذي يفرض ما يجب أن يفعله المرء لينال تقدير الآخرين: «إذا اتبع المرء التعاليم، واتبع طريق الخير، ونأى بقلبه عن طريق الشر سيكون ممدوحا في أفواه القوم». «من يفعل الخير سيجد في اليوم التالي على ما فعله أخبارا سارة على الألسنة، وخير للإنسان مدح الناس وحبهم»

ويبدو أن سلطة المجتمع كانت عبارة عن موقف بمدح أو يستهجن السلوك الإنساني. واعترف المجتمع المصري القديم بأن حق الفرد في تلقيه بأنه حسن الخلق، يتوقف على أخلاقه والروح التي يعامل بها عائلته أي أباه وأمه وإخوانه، وحتى حسن معاملة الجيران وجميع الناس (برستد، انتصار الحضارة، 1969، صفحة 106). وقال "هيرودوت" عن المصريين: «... إذا قابل الصغار منهم الكبار أفسحوا لهم الطريق وتنحوا جانبا. وإذا أقبل عليهم الكبار قاموا من مقاعدهم» (Hérodote, 1964, p. 173).

ولكن بجانب ذلك أدرك المصري القديم أن التمرد على إلزام الجماعة يؤدي إلى الانحلال والفوضى، ومن ثم تمّ تحديد عقوبات قانونية تُلزم الفرد على العودة للنهج الصحيح. فوضعت عقوبات لجرائم الزنا والسرقة والغش وغيرها من الجرائم. فيقول "بتاح حوتب": «إذا كنت في مجتمع فسر دائما حسب قوانينه» (زكري، 1992، صفحة 19)

وبذلك عرف المصري القديم واجبه في ظل نظم سياسية وسلطات اجتماعية، اتفقت على تهديده بالعقوبة إن عصى قوانينها.

مما سبق يتبين تعدد مصادر الإلزام الخلقي عند المصري القديم، التي جمعت بين مصادر الإلزام الداخلي والمصادر الخارجية في آن واحد، ولكن أحيانا تكون الأولوية لأحدهما على الآخر في العصور المختلفة.

فأحياناً تتبين مكانة العقل ودوره في الحض على السلوك الفاضل، وخصوصاً خلال فترة الدولة القديمة، ويرجح أن سبب ذلك يرجع إلى إيمان المصري القديم في تلك الفترة بقيمة الذات الفردية، كما لم يستطع التحرر من سلطة والمجتمع كباعث للقيم الأخلاقية طوال الدولة المصرية الفرعونية. أما سلطة الدين – التي يمكن القول إنها كانت أقوى مصادر الإلزام الخلقي – برزت بصورة واضحة خلال الدولة الوسطى والحديثة، حيث تبلورت فكرة مصير الفرد بيد إلهه، ويده إثابته أو عقابه.

وفي الأخير يبدو أن ظهور الوازع الديني خلق شعور بالمسؤولية للتحلي بالأخلاق الفاضلة والسعي للخير لإرضاء الآلهة، ثم أخذت المسؤولية تتطور تدريجياً متجهة نحو توطيد قوة الضمير لتسيطر على سلوك الإنسان، لتصل في النهاية لقوة اجتماعية ذات نفوذ في حياة الفئة الاجتماعية العامة.

ثالثاً: وسائط غرس القيم الأخلاقية:

تعتبر الأسرة مهد التربية والمدرسة الأولى، لما لها من أكبر الأثر في تكوين شخصية الطفل، وتشكيل مستواه الخلقي والسلوكي والتعليمي من خلال المحاكاة والتطبع، ففي سن الطفولة ينفع الإرشاد ويصح التوجيه، ويفرق بين الخير والشر (محمدي محمود، 2007، صفحة 160).

ففي البيت يستقي الطفل معارفه الأولى جميعها عن الحياة الإنسانية، ومنه يقتبس قواعد السلوك والتعامل، ويكتسب الكثير من سلوكه واتجاهاته في الحياة (مهران، 1989، صفحة 46)، وتؤدي نواحي التربية غير المباشرة عملها في تكوين شخصية الناشئ جنباً إلى جنب مع عوامل التربية المقصودة، بل ولها أثر فعال في تكيف الاتجاهات النفسية والوجدانية للأبناء، وتمثل فيما يكون عليه حال الأسرة من حيث الاستقرار والتماسك وقوة الروابط الأسرية، ثم ما تأخذ به من اتجاهات دينية واجتماعية ففي ضوء هذه الظروف تتكيف اتجاهات الطفل وانفعالاته عن طريق المحاكاة والتطبع، كما يتكيف مستواه الديني والسلوكي والنفسي (حندوسة، 2003).

كان الأب المصري يلقي ابنه ويعلمه تعاليم دينه وعقيدة الحساب في الحياة الثانية بعد الموت. وما من عائلة من عائلات مصر القديمة ذكرت أو صورت دون أن ينتسب فرد منها أو أكثر إلى خدمة إله أو آلهة، حرصاً على التقرب من الآلهة، والإقرار لها بالنعم، والتوكل عليها، وابتغاء حمايتها ولاعتقادهم بأن رضا الإله عن رب العائلة فيه حماية للعائلة كلها (Claut, 1984, p. 39)، وكان الأب يهرع إلى معبوده في الضراء ويذكره في السراء. وبذلك يكون تدين رب الأسرة يؤدي إلى اجتذاب وجدان أولاده فيقلدونه

ويشاركونه اتجاهاته ومشاعره، وبما أنه كان لنساء مصر القديمة اتجاهاتها الدينية فشاركت بنصيب كبير في خدمة الآلهة، فكان له الأثر في اتجاه الطفل بقدر ما يكون تأثير تدين أبيه فيه أو أكثر (صالح، 1966، صفحة 69).

لذا أعطى قدماء المصريين للتربية المنزلية قدرا كبيرا من الرعاية والاهتمام، وفي هذا الصدد يقول المؤرخ اليوناني "ديودور الصقلي Diodorus Siculus": «إن ما يميز حياة المصريين القدماء أن الطفل عندهم يلقي الاهتمام الكامل من التربية المنزلية» (Sicile, 1851, p. 80) ويقول المؤرخ والجغرافي اليوناني "استرابون Strabo": «حرص المصريون على تهذيب كل من يولد لهم من الأطفال» (Strabon, 1880, p. 90) اهتم الآباء بتربية أولادهم على القيم الأخلاقية وآداب السلوك وحسن المعاملة، وليس أدل من ذلك برديات ضمت نصائح وتعاليم، فيها ثروة من تجارب الحكماء في الحياة، بالتأكيد على برّ الوالدين، وتحبيب فعل الخير واتباع الحق والعدل واحترام الغير والتسامح والتواضع... وبهذه القيم والآداب حرص الآباء على تهذيب الأبناء قبل أن يغادروا المنزل إلى دار الحياة الكبرى (مهران آ، 1992). ينصح الحكيم "بتاح حوتب" ابنه قائلا: «إذا كنت رجلا عاقلا فليكن لك ولد تقوم على تربيته وتنشئه، فذلك شيء يسعد الإله، فإذا اقتدى بك وسار على منوالك، واهتم بشؤونك ورعاها، فاعمل له كل ما هو طيب، لأنه ابنك وقطعة من روحك. ولا تجعل قلبك يحافيه، فإذا لم يلتزم بقواعد السلوك وحاز عن الطريق الصواب فقومه بالضرب حتى يعتدل شأنه ويستقيم قوله، وباعد بينه وبين رفقاء السوء حتى لا يفسد، فإن من يسير على دليل لا يضل». وجاء في برديات العمارة: «يا بني... الزواج هو رحلة العمر في بحر الحياة إن تلك الرحلة تحتاج إلى زاد حتى تنتقل بأمان إلى شاطئ نهر الحياة تحتاج إلى زاد من الثقة والصبر والتسامح، وإلى زاد من قوة السواعد المشتركة التي تمسك المجذافين... ليكون ساعدك قويا فلا تئأس ولا تترك المجذاف حتى لا تسير السفينة على غير هدى إنها رحلة العمر، فليباركها الإله يا ولدي» (كريم، الحكم والأمثال في الأدب الفرعوني، 1997، صفحة 160)

والجدير بالذكر أن قدماء المصريين علّموا أبناءهم أن من أهم مظاهر البر والإحسان في حالة ما اقترض الأب مبلغا من المال ووافته المنة قبل تسديد القرض، فإن الابن يقدم للدائن مومياء والده كضمان ريثما يتم تسديد الدين (والمومياء هي أكثر شيء مقدس والأعلى قيمة عند أهل المتوفى)، ويتم استرجاع المومياء عندما يتحصل الدائن على كل أمواله. أما في حالة تعاون الابن فإنه يُعتبر غير بار ويعاقب أقسى

عقوبة والمتمثلة في حرمانه من مكان للدفن (من تخصيص مقبرة له)، بينما يسدد الأحفاد الدين ويجرون المومياء ثم يقيمون احتفالات جنازية (Ménard, 1881, p. 30)

وحرص الآباء أشد الحرص على توجيه أبنائهم نحو رعاية قبورهم، وتأدية الشعائر الدينية فيها. بمعنى أن واجب الابن كما تذكره آلاف النقوش الأثرية هو دفن جثة الأب والاهتمام بالمراسيم الجنازية، والسهر على رعايتها في المنزل الأبدي الذي اختير لها (المقبرة)، والقيام بالطقوس اللازمة نحوها في المواسم والأعياد (بدوي و جمال الدين مختار، 1974، صفحة 129) (روزاليندم و .ج. يانسن، 1997، صفحة 151)، وكانت شعيرة فتح القم الجنازية للمتوفى تشير إلى استرداد قدرته على الأكل والتمتع بالقربين التي تقدم له (Lekov, 2005, p. 23) (الماجدي، 1999، صفحة 230).

يبدو من خلال الحكم والتعاليم والوصايا أن القيم الأخلاقية والسلوكية يرثها الابن عن أبيه، وتكشف نقوش المقابر ونصائح "بتاح حوتب" عن جو مشبع بالمودة والمحبة والاحترام بين أفراد الأسرة ويوحى ببر الوالدين، والتحذير من الجشع المسبب في تفكيك العلاقات الأسرية والاجتماعية. (برستد، فجر الضمير، 1999، صفحة 152)

كما صورت الحياة في الأسرة عند قدماء المصريين بأنها هي العامل الأول في ظهور الأفكار الخلقية وتطورها، فالعلاقات الأسرية المرحية المنطوية على الود (صالح، التربية والتعليم في مصر القديمة، 1966، صفحة 63)، التي تنطق بها نقوش المقابر، تقدم برهاناً أن الإدراك الخلقي والتمييز بين الخير والشر، نبئت جذوره من حياة الأسرة (برستد، فجر الضمير، 1999، صفحة 134). ولذلك علق "برستد" على الأسرة المصرية بأنها قامت على أسس أخلاقية واجتماعية ودينية وطيدة التزم بها الصغير والكبير (برستد، تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسي، 1996، صفحة 55).

المؤسسات التربوية: إيماناً بأن الفضيلة والمعرفة توأمان، سعى الحكماء لبناء مجتمع على أساس ثابت من حسن السلوك واستقامة الخلق والتمييز بين الخير والشر، فحاولوا تربية الأبناء على حياة الفضيلة وإتباع طريق الخير (برونر، 2011، صفحة 201)، وشملت بوجه عام على تعريفهم مجموعة من الأمثال الخلقية والانتفاع بتجارب الحكماء، عن طريق نقلها في كراساتهم مرات كثيرة كجزء من تدريبهم اليومي في المدارس (بدوي و جمال الدين مختار، 1974، صفحة 207).

وظلت تعاليم "بتاح حوتب" تدرس خلال الدولة الوسطى حتى الأسرة الثامنة عشر وربما بعد ذلك، للتهذيب السلوكي والتعرف على قواعد الخلق الطيب، وظلت تعاليم حور ددف تحفظ حتى عصر الرعامسة، واستخدم المربون في الدولة الحديثة تعاليم عصورهم كحكم "آني" و"أمنموبي"، كدروس في الأخلاق. واعتبرت كلها حكما واجبة الإلتباع (صالح، التربية والتعليم في مصر القديمة، 1966، صفحة 270).

أثرت المؤسسة الكهنوتية على المجتمع المصري القديم، من خلال بلورة الفكر الديني والأخلاقي، فمن خلال جملة أدوار ووظائف مارسها الكهنة بدقة، وبفضل عقيدة خلود الروح، وقيم الثواب والعقاب، حرصوا على استمالة الجماهير، ودفعها نحو حياة خلقية أرفع مستوى وأقوى نشاطا، وتثيبت وتدعيم قواعد السلوك، وضرورة التمسك بالعمل الصالح في الحياة الدنيا، حيث أن المرء مطالب ببيان عمله في العالم الآخر. وبما أن عقيدة البعث والحساب أدت إلى فهم المصريين معنى الحق والواجب، وإلى إيمانهم بفضائل الخلق وبمثل معينة في السلوك والمعاملة، وسلحوهم بمكارم الأخلاق والمثل العليا (Montet, 1946, p. 60).

والصلاة يؤديها الملك والكاهن والانسان البسيط، ونص الصلاة تمثل فيما يلي: «أعبدك إلهي، بعبارات مختلفة، بصلوات تزيد من عظمتك، بأسمائك العظيمة، بمظاهرك المقدسة، التي ظهرت بها في اليوم الأول للعالم» وفي العادة تختلف نصوص الصلاة من عصر لآخر، ومن إله لآخر (الماجدي، 1999، صفحة 225).

كان الكاهن المصري القديم يدعو عامة الناس إلى تحكيم ما يرضي به الإله وما لا يرضاه في أمر نفسه وفي أمره مع الناس، ويبيصره بحساب الآخرة، فحرص الجميع على التقرب من الآلهة (Claut, 1984, p. 39)، وكان المصري القديم يهرع إلى معبوده في الضراء ويذكره في السراء. وبذلك يكون تدين كل فرد يؤدي إلى اجتذاب وجدان أفراد عائلته فيقلدونه ويشاركونه اتجاهاته ومشاعره.

وسعى الكهنة في بناء علاقة الثقة بين الفرد وإلهه، حيث يمكن أن يعلن المرء خطأه ويطلب الهداية. ولكنه يعلم أن إلهه رحيم سيعفو له خطايا، ويتضح ذلك من خلال الصلوات كالصلاة للإلهة ماعت:

«اليوم اركع أمامك واعترف بأنني، قد فشلت

اسمع كلامي حتى أصحح الخطأ الذي فعلته

باركني بتوجيهاتك

باركني مع بصيرتك

باركني مع طلبك

باركني بحقيقتك وعدلك

أرسل تحوت لكاتب هذه الكلمات في قلبي

أرسل تحوت ليكتب شرائعك في قلبي

أرسل تحوت ليكتب شرائعك في قلبي

أرسل تحوت ليكتب قوانين رع والخلق في قلبي

أرسل الآلهة والإلهات ليشفعوا لي» (دونان و زفي كوش، 1997، صفحة 157)

رابعاً: تأثير القيم الأخلاقية على العلاقات الاجتماعية:

ساد الاعتقاد بأنه واجب على كل فرد التحلي بالأخلاق الفاضلة والسلوك الخير والابتعاد عن الشر، وهذا ما يُعتبر قيمة بالغة (برستد، فجر الضمير، 1999، صفحة 131)، مما ساهم إلى حد كبير إلى حسن العلاقات الأسرية والاجتماعية

يذكر "جيمس هنري برستد": حفظت في طفولتي مثل إخواني من الصبية "الوصايا العشر" وعُلمت أن أحترمها لأنها سماوية ... لكن في بداية أبحاثي عن الحضارة المصرية القديمة اكتشفت أن المصريين كان لهم قيم أخلاقية أسمى بكثير من الوصايا العشر وأن هذه القيم ظهرت قبل أن تكتب تلك الوصايا بألف سنة.

العلاقات الأسرية:

كان هناك تماسك وترايط عائلي بين أفرادها، ويتضح ذلك من مجموعات التماثيل وفي مناظر الحياة اليومية للأسرة، ومن خلال النصوص المكتوبة. ولكسب ود الزوجة ودوام استمرار حبها، يقول الحكماء: «ولا تنههما عن سوء الظن... واستمل قلبها بعطاياك تستقر في دارك» (صالح، الأسرة المصرية في عصورها القديمة، 1988، صفحة 17)

وفي نص خطاب محفوظ في بردية ليدن أرسله أرمل إلى زوجته المتوفاة: «... لقد كنت شاباً عندما تزوجتك، ولم أترك يوماً بعد حصولي على الترقية في المنصب، ولم أعذب قلبك إطلاقاً...، لم أهرج وبالعكس كنت أقول لنفسني لتكن سعادتني معك. كل رجل كان يأتي للحديث معي عنك، لم أكن أقبل نصائحه بخصوصك، كنت أقول على العكس "تصرف تبعاً لقلبك"...»...، لم أخف عنك شيئاً من

أرباحي حتى هذا اليوم من حياتي، لم يحدث لي أن خدعتك إطلاقاً كما يفعل الفلاح الذي يتسلل إلى بيت سواه....» (مونتيه، 1997، صفحة 72). صور الخطاب واقع الحياة الزوجية وعلاقة الود وحسن معاملة الزوج لزوجته.

رغم أن الزوج كان قواماً على زوجته لكنه كان ملزماً باحترامها وتقديرها، واحترام مشاعرها في كل أمر، سواء في عمله أو بيته أو مع أصدقائه (محمود، 2007، صفحة 149). وقد قوضي أحد الأزواج لأنه كان يشتم زوجته، فقبل الزوج أمام القاضي أن يجلد مائة جلدة، وأن يجرم من نصيبه من المال الذي كسبه بالاشتراك معها، لو شتمها مرة أخرى (نظير، 1965، صفحة 28). وفي إحدى النصوص التي تعود لعصر الدولة الحديثة ذكر بأن أحد الآباء أجبر زوج ابنته على القسم أمام الشهود أنه لن يؤذي زوجته مرة أخرى (حواس، 2007، صفحة 17).

كان من المعتاد إذا واجه الزوج بعض الصعوبات المادية، يتدخل والد الزوجة للمساعدة. وفي نص على أوستراكا في متحف برلين، يذكر أن والد الزوجة أعطى ابنته ممتلكات ومنتجات عديدة، ووعد صهره بأن يرد الدين في شكل حبوب لمدة سبع سنوات (Noblecourt, 1986, p. 207).

حرص الأبناء في مصر القديمة على تقديم القرابين لأبائهم بعد الوفاة والاهتمام بالطقوس الجنائزية، بل رأوا ذلك واجباً عليهم مهما كانت العقبات. وجاء في متون الأهرام ما يتحدث عن لسان الابن في قيامه بهذه الواجبات فيقول: «انفض (أي) حتى ترى هذا، قم حتى تسمع هذا الذي يفعله ولدك من أجلك» (صابر، 2002، صفحة 482). ويتحدث أحد أبناء الدولة الوسطى عن إحيائه لذكرى أبيه فيقول «لقد جعلت اسم أبي ينمو ويعظم» (صالح، التربية والتعليم في مصر القديمة، 1966، صفحة 16).

غير أن المصري القديم وضع احتمال أن الابن من الممكن أن يهمل تقديم القرابين لوالده، وبذلك تصيب أواخر العواقب للمتوفى في حياته الأخروية، ومن ثم ظهرت الحاجة لإيجاد حل يضمن للميت تقديم طعامه، ومنذ تلك اللحظة لم تعد القرابين الجنائزية مظهراً من مظاهر البر، بل تطورت حتى أصبحت مهنة. وكان للملك كهنة جنائزيون يُطلق عليهم اسم "خادم القرابين" (أي خادم الكا) يقومون مقام الابن الأكبر في تأدية الخدمات اللازمة للقبر وصيانته. وبما أنهم كانوا يعيشون بجوار القبر الملكي، خصصت لهم أرض تكون ملكهم الخاص يستلمون دخلها باستمرار.

هذا بالإضافة إلى أن الكهنة لجأوا لطريقة سحرية لطعام أبدي عن طريق رسم مائدة قرايين، حيث يُنحت في الحجر أمام الباب الوهمي، وكثيرا ما كانت تُنقش بعض مناظر الطعام من خبز ولحم وطيخ وخضروات وفاكهة، مع أدعية تقليدية بوافر الطعام من الآلهة لروح المتوفى (دونان و ليشتنبرج، 1992، الصفحات 104-105) (الماجدي، 1999، صفحة 230).

العلاقة بين أفراد المجتمع:

حسب "برستد" أن السلوك الحسن كان في البداية محصورا داخل الأسرة، واتسع نطاقه ليشمل العلاقات الاجتماعية خارج الأسرة، قبل عصر الأهرام بزمان طويل (برستد، فجر الضمير، 1999، صفحة 137)، تستهدف التربية المصرية القديمة إنشاء فرد في المجتمع جدير بالاستماع بمعنى يتبنى الحكمة ويتقبل النصيح والتعلم ويتفاعل مع الآخرين. وحسب عالم المصريات الألماني "يان اسمان"، أن الإلهة "ماعت" تحض على ممارسة فعل الخير تطوعا من النفس، وتُحرّم الأنانية. من خلال "السعي المتبادل للخير" في إطار الثقة والنجاح بين أفراد المجتمع، و"الحس الاجتماعي" والاندماج الاتصالي في عالم اجتماعي خال من العنف والشر، ويرتكز على الكلام المنسق والمنسجم فيحقق الانسجام الاجتماعي. (اسمان، 1996، صفحة 52) بمعنى تتركز قيمة السعي للآخر في أنه يؤدي إلى الحفاظ على الأفعال الحَيَرة، والسعي المتضامن فيحقق الثقة والاستقرار والسلام التي يمنحها المجتمع. (اسمان، 1996، صفحة 43)

ويوضح الحكيم "بتاح حوتب" نتائج عدم الاستماع:

«أما الأحمق الذي لا يستمع

فلا يسعى لأجله أحد

والمعرفة لديه مثل الجهل

والمفيد مثل الضار

يفعل كل ما هو مكروه

ويعاتب يوميا بسبب ذلك

ويعيش على ما يموت منه الآخرين

الكلام غذاء الضار

طبعه السيء معروف لدى الأكابر

وهو يحيا كالميت كل يوم

وإننا نتجاوز عن أخطائه بسبب كم

المصائب التي تحمل عيه كل يوم» (غربال، د.ت، صفحة 435)

ويقصد "الحكيم بتاح" حثب أن الشخص الفاقد للصواب الذي لا يُسمع يُستبعد من التضامن النابع من السعي المتبادل للخير، لا يتفاعل مع أحد، بل بالعكس يكون منبوذا ومكروها، فمكانة الفرد الاجتماعية يكتسبها من تعاونه وسعيه للخير للآخرين، وبما أن الكلام هو الوسيط الذي يربط بين الفرد والجماعة، يتحقق الاندماج الاجتماعي وفقا لنوعية الأسلوب في الكلام والذي يأتي من حسن الاستماع. وبما أن القلب والكا هما مركزي الفكر والمعرفة والإحساس عند المصري القديم. ارتبط عندهم الجشع بالقلب. ويمكن أن يُقارن الجشع بالأناثية. إذ هو كل ما يتعارض مع مقاييس الاندماج الاجتماعي التي عرفنا بأنها جزء لا يتجزأ من ماعت (اسمان، 1996، صفحة 52). وفي حكم "بتاح حوتب"

«إذا أردت أن يمتاز سلوكك

فأبعد عن الشر أيا كان

احذر من الجشع

لأنه مرض خطير ومستعص

ولا يجعل مكانا للألفة

إنه يحط من شأن الآباء والأمهات

والإخوة من أم واحدة

ويعطي مرارة لحلاوة الصداقة

ويبعد السيد عن صديقه

ويفرق بين الزوج وزوجته

إنه خلاصة كل ما هو سيء

ويحيط بكل ما يدعو للتأنيب

أما من يتكيف مع ماعت فإنه يدوم

وينطلق طبقا لخطواتها

وبفضل ذلك فسوف يترك وصية

أما الجشع فلا قبر له» (غريال، د.ت، صفحة 434)

هذا النص يشير بوضوح أن الجشع هو الذي يقضي على العلاقات الاجتماعية. بمعنى أن الأخلاقيات تحذر من شدة التعلق بسيادة الذات، بل تستهدف أن تجعل الفرد مندجاً ومتكاملاً مع الآخرين. لتشكيل العلاقات الاجتماعية على أساس الثقة. أما عن شهادة الزور اعتقد المصري القديم أنها تسبب العمى. ففي صلاة اعترف أحدهم بخطأ معين قام به فعوقب عقاباً إلهياً.

«كنت رجلاً أقسم زوراً ببتاح، سيد الحقيقة

فجعلني أرى الظلام في (وضح) النهار

لذلك سوف أعلن قوته

لمن لا يعرفها ومن يعرفها،

للصغار والكبار

احترسوا من بتاح، سيد الحقيقة

لقد جعلني شبيهاً بحيوانات الطريق

وكنت في يده

وجعلني مشهداً للآلهة والبشر

كنت مثل؟ رجل

فعل شيئاً بشعاً بسببه

كان بتاح سيد الحق، عادلاً نحوي

لقد لقني درسا

كن رحيماً بي

وسوف أرى رحمتك» (دونان و زقي كوش، 1997، صفحة 158)

وبما أن المتوفى يحاسب بعد الموت، عن أي خطأ ارتكبه أو ظلم اقترفه أثناء حياته الدنيوية، بوقوفه أمام الإله يوم الحساب -القاضي الأعلى لمحكمة الموتى. لذا دَوّن المصريون على واجهة قبورهم حسن التعامل

والسلوك مع الناس. ومراعاة المحتاجين والعطف عليهم. ومما لا شك أن تدوين مثل تلك الأقوال، لم يكن أمراً قليل الأهمية والجدوى، لأنه أبلغ دليل على سلوكياتهم التي لها تقديرها في نظر الآلهة، مما قد ينعكس على سعادة أو تعاسة المتوفى في الحياة الثانية. فمثلاً أقام مدنيا نصبا على واجهة قبره ليقرأه الأحياء منقوشا عليه الخطاب التالي: «أنتم أيها الأحياء المارون بهذا القبر، قدموا بقربان جنازي مما عندكم فيؤتى به إليّ لأني كنت إنسانا محبوبا من الناس... فلم أتسول على متاع أي شخص قسرا، وكنت أفعل ما يرضي الناس» ونرى مثل ذلك في نقش قبر آخر لإنسان كان على ما يظهر موضع اهتمام جيرانه إذ يقول: «لقد فعلت ما كان يحبه الناس ويرضي الآلهة حتى يجعلوا بيت أبديتي (أي قبره) يبقى وأسمى موضع الحمد على ألسنة الناس» وكتب أحد الموتى في نقوش قاعدة تمثال جنازي له منصوب في قبره: «لقد طلبت إلى النحات أن ينحت لي هذه التماثيل، وقد كان راضيا بالأجر الذي دفعته له»، ويقول مدير ضيعة يدعى "مني" في نقوش مأخوذة من مقبرته (الأسرة الرابعة) وموجودة في متحف (جلبتوتيك) بمدينة ميونيخ ما يلي: «أما فيما يخص كل رجل عمل هذا لي (أي شارك في إقامة هذا القبر) ... سواء أكان صانعا أم حجارا، فإني قد أرضيته» (برستد، فجر الضمير، 1999، صفحة 137)

يبدو أن المجتمع المصري القديم وكأن بنائه وفاعليته قائمة على القدرة على حسن الاستماع والتواصل مع الآخرين والسعي لفعل الخير. والابتعاد عن أسوأ رذيلة وهي الجشع والطمع

العلاقة بين الحاكم والرعية:

قبل الشعب المصري الحكم الملكي بصفته من وضع الإله الخالق للعالم، وبذلك خضعوا له لأنه عادل (مهران م.، الثورة الاجتماعية الأولى، في مصر الفرعونية، 1999، صفحة 158). ولم يكن للملك الحق في تغييره، فإذا حاد عنه فإنه يُعد خارجا على نظام خالق الخلق، وقد استمر ملوك مصر من أول مينا حتى نهاية الأسرة السادسة يسرون حسب تعاليم ونظام "ماعت" الذي وضعه الإله "رع"، أي العدالة والاستقامة، والصدق، وهو نظام تقرر منذ البداية، ثابت وصالح لجميع الأزمان (ويلسون، 1955)، ويؤكد هذه الفكرة المؤرخ "ديودور الصقلي": «لم يكن الملوك يعيشون عيشة حرة مستقلة كغيرهم من ملوك الأمم الأخرى إذ لم يكن في وسعهم قط أن يتصرفوا حسب أهوائهم، فكل شيء كان محدودا بالقوانين لا في حياتهم العامة فحسب بل في حياتهم الخاصة اليومية كذلك، ولم يكن يقوم على خدمتهم رجال أو أرقاء بل أبناء الكهنة

الذين تربوا بعناية كبرى وجاوزوا العشرين من أعمارهم وبهذه الطريقة يكون حول الملك ليل نهار ممن يخدمون شخصه نماذج حقيقية للفضيلة فلا يستطيع أن يقدم على عمل مذموم» (Sicile, 1851, p. 85) وسجل أحد الحكام من الدولة الوسطى على قبره عنايته بالرعية: «لم أسئ معاملة ابنة رجل من القوم، ولم أظلم أرملة، ولم أمتهن فلاحا، إنني لم أطرر راعيا ولم أسخر في أشغالي عمالا بلا أجر، وبهذه الطريقة زالت الكآبة عن قلبي وانعدم الجوع وقت حياتي، ولما حصل في زماني القحط اجتهدت في زرع أرض قسمي حتى آخر حدوده الجنوبية والشمالية وأطعمت سكانه، فلم يجمع منهم أحد، وكنت أسوي العطاء للأرملة والمتزوجة والكبير والصغير» (السعدي، 2010، صفحة 90).

وقد ترك أحد حكام المقاطعات ممن عاشوا في القرن السابع والعشرين ق.م البيان التالي حيث يقول: «لقد أعطيت الخبز لكل الجائعين في "جبل الثعبان" (ضيعته) وكسوت كل من كان عريانا فيها، وملأت الشواطئ بالماشية الكبيرة وأراضيها المنخفضة بالماشية الصغيرة، وأشبع كل ذئب الجبل وطيور السماء بلحوم الحيوان الصغير... ولم أظلم أحدا قط في ممتلكاته حتى يدعوه ذلك إلى أن يشكوني لإله مدينتي، ولكن قلت وتحدثت بما هو خير، ولم يوجد إنسان كان يخاف غيره ممن هو أقوى منه حتى جعله يشكو للإله. ولقد كنت محسنا لأهل ضيعتي بما في حظائر ماشيتي وفي مساكن صيادي الطيور، وإنني لم أنطق كذبا لأني كنت رجلا محبوبا من والده ممدوحا من والدته رفيع الأخلاق مع أخيه، ودودا لأخته» (Campagno, 2014, p. 6)

ومن بين ما ذكر على بعض المقابر:

«...لقد أعطيت خبزا لكل جائع وأعطيت الشراب لمن كان ظمأنا وثيابا لمن كان عار وعبرت النهر بمن لم يكن لديه مركب وقد دفنت من لم يكن له ابن...» (Campagno, 2014, p. 11) ووجد في خطاب موجه للأحياء على باب مقبرة "حرخوف" على بلدة (أسوان) الحالية: «كنت... محبوبا من والده ممدوحا من والدته يحب كل إخوته، ولقد أعطيت خبزا للفقير وملابس للعريان وعديت من لا قارب له. وأنتم أيها الأحياء الذين على وجه الأرض والمارون بهذا القبر، سواء أكنتم نازلين مع النهر أم صاعدين فيه، قولوا: ألف رغيف وألف إناء جعة (تقدم) لصاحب هذه المقبرة، وإنني في مقابل ذلك سأشفع لكم في العالم السفلي لأني إنسان مجهز (بالسحر) وكاهن مرتل فمه على علم» يُفهم من هذا الخطاب إغراء

الأحياء المارين من أمام القبر على المصلحة المتبادلة، بتقديم قربان لفظي مقابل الحصول على الشفاعة في العالم السفلي.

يبدو من استخدام عبارات حسن السلوك وفعل الخير في السير الذاتية الجنائزية، توضيح أن حاكم الإقليم أو أي مسؤول مهما كانت صفته. كان إنسانا صالحا فاضلا، لم ينجز واجباته كمهام محدّدة فقط. بل شارك في مراعاة المحتاجين، وحماية البؤساء من تسلط الأقوياء. وبالتالي هذه العبارات تبرز التقوى والصلاح وحسن السيرة للمتوفى، لنيل رضا الآلهة يوم الحساب. غير أن السير الذاتية تعكس طابع المصلحة في العلاقات الاجتماعية حيث تهدف إلى حماية المسؤولين لأصحاب الطبقة الدنيا، مقابل ولاءهم ورضا عنهم لضمان رضا الآلهة.

وبالنسبة لطاعة الشعب لملكه، فنتيجة إيمانه التام بالملكية الإلهية، لذا أقبل على هذا النظام إقبالا يتسم بالولاء الكامل والتضحية التامة، ولما حاد الملوك عن تعاليم ماعت كانت الثورة الاجتماعية استمرت أكثر قرن من الزمان، إلى أن عاد قانون الإلهة "ماعت" على يد ملوك الدولة الوسطى (سليم، 1993، صفحة 119)

ورغم تعاليم "ماعت" العادلة إلا أنه وجد بعض التدمير والسخط في أوساط الشعب، فالعلاقة بين الرعية والموظفين هي غالبا تتخللها مشاكل، لأن الموظف يمثل الدولة، ويشاركها سلطتها وأحيانا يسيء استعمالها (اسمان، 1996، صفحة 48)

خامسا: مثالية المجتمع المصري القديم:

لا يترتب على تلك الحكم والوصايا بالضرورة افتراض مثالية التطبيق، وإنما هي تعني أنها مجموعة قواعد أخلاقية وسلوكية تحث على العمل الصالح والدعوة للخير، ظلت مزدهرة طوال عصور الفكر المصري القديم، تعبيرا عن التراث الفكري، الذي تجمع شيئا فشيئا من جيل لآخر (زهران، 2012، صفحة 35). وتشير التماسات عديدة لتحقيق العدالة الإلهية. فيبدو أنه لا توجد إلا ثقة محدودة في نظر المشتكين في المحاكم البشرية وأمانتها، فلم يوجد إذا ملاذ آخر إلا التوجه إلى إله عادل نزيه لا يُرتشى، أين يكون لكل فرد أمامه نفس الحقوق، واستخدمت بعض الصلوات كتمارين مدرسية عبر القرون وهي واضحة للغاية في هذا الصدد:

«أنت وزير الفقراء "أمون"
ولا تقبل هدية ظالمة
ولا تصدر حكمك لمن يزور شهادة
ولا تلتفت لمن يعد
يحكم أمون العالم بأصبعه
ويكلم القلب
إنه يجد المخطئ
ويرسله للنار،
ولكن العادل يذهب للأمني
يسمع أمون من هو بمفرده في المحكمة
حينما يكون فقيرا دون ثروة
بينما تطالبه المحكمة بسداد ذهب وفضة
لكتابة الجلسة

وملابس للمحضرين». (دونان و زقى كوش، 1997، صفحة 155)

اعتقد المصري القديم، أن كل فرد يتحمل وزر خطيئته وهو مسؤول عنها، لكن بطريقة مختلفة تماما عن إعلان البراءة في كتاب الأموات، ويمكن للشخص نفسه أن يقر بأخطائه وأن يقول أنه لم يرتكب وزرا. ويمكن أن تتعايش الفكرتان معا، رغم التناقض الواضح، حيث يتوجه أحد الأفراد أثناء حياته إلى إلهه، ويعترف بخطاياهم يرجو رحمته، وبالذات حينما يعتقد أنه وقع عليه عقاب معين نظير ذنب اقترفه، فيرجو من الإله تخفيف عقابه. وفي نفس الوقت يحتاج المتوفى إلى استخدام كل القوى السحرية للكلمات، لكي ينتصر في لحظة وزن الأرواح والحاكمة الإلهية.

فعلى الصعيد الديني رغم ظهور نظرية الثواب والعقاب بصورة واضحة مطبقة على الجميع، غير أن سلطان المحاكمة الأوزيرية ما لبث أن مُسَخَّ مَبَكراً بالعوامل السحرية التي جاءت في كتاب الموتى، الذي ألفه كهنة المعابد للكسب منه، إذ زعموا فيه أنه وسيلة تساعد الميت على التخلص من العقوبة بخداع وتضليل القاضي.

خاتمة:

القيم الأخلاقية وقواعد السلوك، هي كيفية التصرف في الحياة واختيار سلوك قويم وخير أمام موقف معين في مجتمع منظم، والفضيلة تختلط مع التقوى والمعتقدات الدينية كثيرا، لكنها لا ترتبط بالطقوس الدينية فقط، بل تختص بكل مظاهر الوجود الأخرى، وكفلت التعاليم ونصائح الحكماء -عن طريق المؤسسة الأسرية والتعليمية والدينية- حسن العلاقات الاجتماعية والسعي المتبادل للخير من جهة، وانتقال الحكم والمعرفة والخبرة فبلورت الفكر السلوكي وشكلت القواعد الأخلاقية التي ساهمت في التطور الاجتماعي والحضاري المصري القديم من جهة أخرى.

CONCLUSION

Ethical values and codes of conduct are considered as the know how to behave in life and choose valuable and benevolent behaviour in a particular situation in an organized society. Virtue is almost mixed with religious piety and beliefs, but it is not only related to religious rituals, but specializes in all other manifestations of existence, and ensured the teachings and advice of the wise - through the family, educational and religious institution - good social relationships and mutual pursuit of good on the one hand, and the transition of governance, knowledge and experience. On the other hand, it crystallized behavioral thought and formed the moral norms that contributed to the social and cultural development of the ancient Egyptian.

قائمة المراجع باللغة العربية:

- 1- أحمد هندوسة (تحفة)، 2003، الزواج والطلاق في مصر القديمة، ط2، مطابع المجلس الأعلى للآثار، القاهرة.
- 2- أنطون (زكي)، 1992، الأدب والدين عند قدماء المصريين، المتحف المصري، القاهرة.
- 3- بدوي (أحمد) - جمال الدين مختار (محمد)، 1974، تاريخ التربية والتعليم في مصر، ج1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.
- 4- بسيوني (محمد عبد الحميد)، 1997، آداب السلوك عند المصريين القدماء، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.

- 5- حواس (زاهي)، 2007، الأسرة أيام الفراعنة، نخبة مصر، القاهرة.
 - 6- زهران (شاهيناز)، 2012، الأخلاق في الفكر المصري القديم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.
 - 7- السعدي (حسن محمد محي الدين)، 2010، معالم من حضارة مصر في العصر الفرعوني، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية.
 - 8- سليم (أحمد أمين)، 1993، تاريخ الشرق الأدنى القديم مصر-سوريا القديمة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية.
 - 9- صالح (عبد العزيز)، 1966، التربية والتعليم في مصر القديمة، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة.
 - 10- صالح (عبد العزيز)، 1988، الأسرة المصرية في عصورها القديمة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.
 - 11- علي سعد الله (محمد)، 2002، في تاريخ مصر القديمة، ج1، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية.
 - 12- غربال (محمد شفيق) وآخرون، د.ت، تاريخ الحضارة المصرية، المجلد الأول العصر الفرعوني، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.
 - 13- كريم (سيد)، 1996، لغز الحضارة الفرعونية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.
 - 14- كريم (سيد)، 1997، الحكم والأمثال في الأدب الفرعوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.
 - 15- كمال (محرم)، 1998، الحكم والأمثال والنصائح عند المصريين القدماء، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.
 - 16- الماجدي (خزعل)، 1999، الدين المصري، دار الشروق، الأردن.
 - 17- مرحبا (محمد عبد الرحمن)، 1988، المرجع في تاريخ الأخلاق، الجزء الأول، جروس برس، لبنان.
 - 18- مسكويه (أبي علي أحمد بن محمد بن يعقوب)، 2011، تهذيب الأخلاق، تحقيق عماد الهلالي، منشورات الجمل، بغداد - بيروت.
 - 19- مظهر (سليمان)، 2000، أساطير من الشرق، دار الشروق، القاهرة.
 - 20- مهران (محمد بيومي)، 1989، الحضارة المصرية القديمة، ج2، ط4، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية.
 - 21- مهران (محمد بيومي)، 1999، الثورة الاجتماعية الأولى في مصر الفراعنة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية.
 - 22- نظير (وليم)، 1965، المرأة في تاريخ مصر القديم، دار القلم، القاهرة.
- قائمة المراجع المترجمة:
- 1- أرسطو (طاليس)، 1924، علم الأخلاق إلى نيقوماخوس، ترجمة أحمد لطفي السيد، الجزء الأول، دار الكتب المصرية، القاهرة.
 - 2- اسمان (يان)، 1996، ماعت مصر الفرعونية وفكرة العدالة الاجتماعية، ترجمة زكية طبوادة-علية شريف، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة.

- 3-برستد (جيمس هنري)، 1969، انتصار الحضارة، ترجمة أحمد فخري، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.
 - 4-برستد (جيمس هنري)، 1996، تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسي، ترجمة حسن كمال، مكتبة مدبولي، القاهرة.
 - 5-برستد (جيمس هنري)، 1999، فجر الضمير، ترجمة سليم حسن، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.
 - 6-برونز (هيملوت)، 2011، التربية والتعليم عند المصريين القدماء، ترجمة مصطفى عبد الباسط، المركز القومي للترجمة، القاهرة.
 - 7-بيبنز (جون) وآخرون، 2012، الديانة في مصر القديمة، ترجمة محمود ماهر طه، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.
 - 8-دونان (فرنسواز) - ليشنترج روجيه، 1992، الموميات المصرية من الموت إلى الخلود، ترجمة ماهر جويجاني، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة.
 - 9-دونان (فرنسواز) - زقي كوش (كريستيان)، 1997، الآلهة والناس في مصر من 3000 ق.م إلى 395 ق.م، ترجمة فريد بوري، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة.
 - 10-روزاليندم-يانسن جاك ج، 1997، الطفل المصري القديم، ترجمة أحمد زهير أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.
 - 11-مونتبييه (بيير)، 1997، الحياة اليومية في مصر، ترجمة عزيز مرقس منصور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.
 - 12-ويلسون (جون)، 1955، الحضارة المصرية، ترجمة أحمد فخري، النهضة المصرية، القاهرة.
- قائمة المقالات باللغة العربية:**
- 1-برادي (عبد الرحمن)، 2015، مسكويه والتربية الأخلاقية، مجلة متون، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة سعيدة، المجلد 8 رقم 3، الجزائر.
- قائمة الأطروحات والرسائل الجامعية:**
- 1-سعد محمدي محمود (أيسم)، 2007، تربية وتعليم الإناث في مصر القديمة من (3150 ق.م وحتى 343 ق.م)، رسالة ماجستير، قسم أصول التربية، جامعة القاهرة.
 - 2-محمد بيومي محمود مهران (آمال)، 1992، مركز المرأة في الأسرة في مصر القديمة، رسالة ماجستير، قسم التاريخ والآثار المصرية والإسلامية، جامعة الإسكندرية.

قائمة المصادر باللغة الأجنبية:

- 1-Diodore de Sicile, 1851, Bibliothèque historique, trad M.Ferd Hoefer, ed Adolphe Delahays, Paris.
- 2-Herodote Thucidide, 1964, Œuvres complètes, trad A. Barguet, livre 2, ed Gallimard, Paris.
- 3-Srtrabon, 1880, Géographie, tra Amédée Tardieu, T3, ed Librairie Hachette, Paris.

قائمة المراجع باللغة الأجنبية:

- 1-Claut J. le, 1984, La naissance de l'Egypte pharaonique Egypte, ed Bordas, Paris.
- 2-Green Thomas Hill, 1906, Rrolegomena to ethics, Ed Oxeford at the clarendon Press, London.
- 3-Montet Pierre, 1946, La vie quotidienne en Egypt, Hachette, Paris.
- 4-Noblecourt Christiane Desroches, 1986, La femme au temps des pharaons, Le grand livre du mois, Paris.
- 5-René Ménard, 1881, La vie privée des anciens, T3 La famille dans l'antiquité, Paris .

قائمة المقالات باللغة الأجنبية:

- 1-Marcelo Campagno, 2014, "Patronage and other logics of social organization in ancient Egypt during the IIIrd millennium BCE", journal of Egyptian history 7.
- 2-Teodor Lekov, 2005, "Ancient Egyptian notion of Ka according to the Pyramid texts", Journal of Egyptological studies 2.

The Ethical dimension and it's role In the ancient Egypt Social relationships

Soumia Chahbi

Higher School of Teachers Bouzareah Algeria

soumia.chahbi@yahoo.com

Abstract:

Through our article, we aim to highlight the moral values and ideals that characterized ancient Egyptian civilization. We try to highlight the roles of the religious conscientiousness, community authority and human sense in entrenching the norms of conduct and shaping an ethical intellectual system, which has grown and evolved as a result of historical development and the accumulation of intellectual and wise experiences.

Finally, we find that the intellectual institution "The Wise" and the priestly and educational institution structured society (social relations) and led individuals (individual life) to instill moral values, through religious teachings, advice and myths, in order to win the love and consent of the gods. In addition to the chase for stability, happiness, internal peace, interdependence and social progress. In fact, the ancient Egyptian perceived greed as the most dangerous kind of vice that destroys family and social relationships and leads the individual to doom.

Keywords: Ethics, the teachings of the wise, the family, society, ancient Egypt.